العنوان: سمات الخطاب التعليمي والتربوي عند عبد الحميد بن باديس

د. هاجر بوفريوة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة

ندوة علمية بعنوان: "خصائص الخطاب التعليمي الباديسي في ضوء معطيات اللسانيات التعليمية"، يوم: 12 جوان 2023.

مقدمة:

يعدّ التعليم نشاطا يهدف إلى إثارة المتعلم وتزويده بالمعارف والمكتسبات والخبرات الّتي تدعم مخزونه، بغية تحقيق أهداف وأغراض تربوية معينة، ويرتكز التعليم على التّواصل بالدرجة الأولى، فهو مطلب ضروري لنجاح العملية التّعليميّة، لذلك يقوم الخطاب التعليميّ على التحام جهود أقطاب التعليم، وتوفير جملة من الشروط والظروف الّتي تسمح بتفعيل دور المعلم والمتعلم، وربطها بآليات وكيفيات تُنمي المهارات اللّغوية، وتُجنب المتعلم الوقوع في الخطأ، ووفقا لهذا المنظور تعتبر التّعليميّة وعاء يحوي طرق ومراحل التعليم ومناهج التدريس المختلفة، والوضعيات والاستراتيجيات التربوية، فهي بوابة تفتح آفاقا أمام المعلم والمتعلم لتزويده بالضوابط والأسس الّتي تحقق مقاصد معينة.

لا تبرز قوة المجتمعات وتقوم الحضارات وتنتعش العلوم وترتقي إلاّ إذا توفر الشرط الأساسي الّذي تدور في فلكه وهو الاهتمام بالنظم التربوية والتعليمية، ذلك لأنّها تمد الفرد بالقيم وتزوده بالمعارف والخبرات، ويعدّ (عبد الحميد بن باديس) واحدا من أبرز العلماء الجزائريين الذين أولوا عناية بالغة للإصلاح الديني والتربوي والتعليمي.

ووفقا لهذا المنظور تأتي الدراسة الموسومة بـ " سمات الخطاب التعليمي والتربوي عند عبد الحميد بن باديس " للوقوف على أبرز الأسس التربوية والتعليمة التي نادى بها (ابن باديس) والإجابة على جملة من الاشكالات يتقدمها: ماهي مميزات الخطاب التعليمي الّذي وجهه (ابن باديس) للمعلم والمتعلم؟ هل ساهم في تقديم إصلاحات إجرائية تخدم التعليم العربي؟

1. الخطاب التعليمي الموجه للمعلم:

يسهر الطاقم التربوي على نجاح العمليّة التعليميّة لتزويد المتعلم بالمكتسبات والكفاءات اللازمة، الّتي تسمح له بتنمية مخزونه والانتقال من مرحلة إلى أخرى، ويعدّ المعلم والمتعلم الحجر الأساس في بناء هرم التعليم ولكلّ منهما دور جوهري في التجهيز لهذا البناء وإتمامه على أكمل وجه.

وبما أنّ المعلم هو المحرك الرئيسي للعملية التعليمة فقد وجه له (عبد الحميد بن باديس) خطابا يحثه من خلاله على ضرورة فهم المتعلم للتأثير فيه وعليه وهذا ما وضحه في قوله: « فنحن _أيها الإخوة_ الذين اجتمعنا على التربية والتعليم من معلم ومتعلم يجب علينا أن يفهم بعضنا بعضا، والمعلم هو الّذي يجب أن يفهمه المتعلمون ويفهمه هو في نفسه؛ لأنّه هو الّذي انتصب ليبث فيهم أفكارا وأخلاقا وآدابا وهو مؤثر عليهم أثرا ما لا محالة، فمن واجب نصحه لهم أن يفهمه في نفسه لينظروا في قبول التأثر به فيستمرون معه، وعدم قبوله فيفارقونه، وليكون من قبلوا واستمروا مجتمعين على شيء قد فهموه واتفقوا على البقاء فيه والتعاون عليه»[1]

يعدّ فهم الآخر شرطا أساسيا لتقبله والتواصل معه، لذلك ينبغي أن يسعى المعلم والمتعلم إلى تحقيق التفاهم فيما بينهما، الّذي يفضي إلى الاتفاق والتوافق، وعلى المعلم أن يبادر إلى فهم المتعلم ليبث وينقل أفكاره وأخلاقه وآدابه للمتعلم، بغرض التأثير فيه وتغيير سلوكه نحو الأحسن، وجعله يرغب في تعلم المادة العلمية وفي الحضور إلى الحصص والتزود بالمعرفة، والأخذ بالنصح والإرشاد الّذي يوجهه له المعلم، وهذا ما يتناسب مع الخطاب الّذي وجهه الله تعالى للرسول ﷺ، حيث قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2] فالعلم الّذي يمتاز بقساوة القلب دون رحمة ولا رأفة ينفر منه طلبة العلم، ويقاطعون مجالس العلم الّتي يقدمها، أمّا المعلم الّذي يتفهم نفسية المتعلم ويراعي التفاوت في درجات استيعاب الطلبة للمادة وقدراتهم وظروفهم الشخصية والاجتماعية يتمكن من التأثير عليهم، وتبليغ الرسالة لهم، وهذا ما أشار إلية (ابن باديس) في قوله: «وما يحتاج

---

[1] _ عمار الطالبي: ص 233.

[2] _ آل عمران الآية 159.

إليه المعلم من معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين وحسن التنزل لهم والآخذ بإفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعداهم».[1]

راسل (عبد الحميد بن باديس) رجال التعليم العربيّ الحر لحضور مؤتمر تحت إشراف جمعية العلماء بنادي الترقي بالجزائر، ولتبادل الآراء فيما يهم التعليم العربيّ ومدارسه ومساجده ونظمه وأساليبه، والغاية المنشودة من ذلك هي التوصل إلى توحيد مناهج التعليم العربي، وطلب من الأساتذة القائمين بهذا النوع من التعليم بأن يعدوا خلاصة آرائهم ضمن تقارير تسلم عند حضورهم للمؤتمر، والّتي تتضمن:

وسائل توحيد التعليم، أسلوب التعليم، أسلوب تربية الناشئة، خلاصة تجاربهم في التربية والتعليم، الكتب وهل الأحسن اختيار كتب مصرية أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية، رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه، التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته، رأيهم في الوسيلة الّتي نعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقي العلم، تقارير مفصلة لدرجة إقبال الأمة على التعليم بأقسامه السابقة (كل في جهته)[2]، ويلاحظ من خلال القراءة الأولية لفحوى الإرسال الصادر عن رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنّه ينطلق من تعاليم الإسلام بدليل تطبيقه لنظام الشورى للوصول إلى هدف أسمى وهو توحيد مناهج التعليم، وهذا ما يفتقر إليه التعليم اليوم في المشرق والمغرب العربيّ، حيث يسعى إلى التعرف على الوسائل الّتي تساهم في بلوغ هذا الهدف، والأسلوب الأمثل لتعليم الناشئة وتربيتهم، انطلاقا من تقديم خلاصة تجارب الأساتذة وخبرتهم في التربية والتعليم، وهذا ما يؤكد ربطه بين الجانب التعليمي والتربوي لتكوين جيل متكامل، يكتسب الملكات المعرفية ومقومات بناء الشخصية والأسس التربوية الّتي تجعل منه مواطنا صالحا في المجتمع.

كما تساءل عن الاختيار الأمثل لمصادر تأليف الكتب المناسبة للتعليم، وهذا إمّا بالاعتماد على الإنتاج المصري أو تشجيع التأليف الّذي يتماشى مع الفكر والبيئة الجزائرية، فينطلق منها ويعود إليها، حيث يتمكن الأساتذة من تقييم الإصدارات العلمية المصرية المعتمدة في التعليم، والحكم على مدى نجاعتها في اكتساب المتعلم الجزائري للمعرفة الّتي تتفق مع المنطلقات والأفكار والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الجزائرية، بالإضافة إلى اهتمام (عبد الحميد بن باديس) بتعليم المرأة المسلمة من خلال التعرف على رأي الأساتذة واقتراحاتهم حول وسائل التعليم التي يعيد بها للمرأة المسلمة سيرة سلفها من تلقي العلم، وهذا إقرار منه بقيمة تعليم المرأة في المجتمع والعودة إلى الأسس التي اعتمد عليها السلف الصالح لتلقين المرأة العلم، واكتسابها للتعاليم

[1] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 181.

[2] _ محمّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007م، ص 148، 149.

والمبادئ الإسلامية، وهذا ما أشار إليه في قوله: «ندعو جميع المسلمين في كل بلدة لتربية أبناء المسلمين وبناتهم وتعليمهن وتعليمهم وأن ينهضوا لذلك نهضة حقيقية ويسعوا له سعي الجد المتواصل، فإنهم لا بقاء لهم إلاّ بالإسلام ولا بقاء للإسلام إلاّ بالتربية والتعليم».[1]

واستنادا إلى أنّ المبادئ الإسلامية تتنبع من التعليم المسجدي _آنذاك_، فإنّ هذا يقتضي اقتراح وسائل خاصة لتنظيمه وترقيته، لتتناسب مع النظام العام للمساجد وأسس تلقين المادة العلمية، التي تتمثل في العقيدة والسنة والقرآن الكريم...، وقد طلب رئيس الجمعية من الأساتذة _ في الختام _ تقارير مفصلة لدرجة إقبال الأمة على التعليم بأقسامه في كل من الشرق والغرب الشمال والجنوب بالإضافة إلى الوسط الجزائري، للوصول إلى نتائج حول مدى وعي الأمة بضرورة الالتحاق بمقاعد الدراسة واكتساب العلم والتعلم، فقد عان الشعب الجزائري في فترة الاستعمار من الاضطهاد والظلم، ولكن حبه للعلم والتعلم وظهور الجمعيات التي تدافع عن حقه في التعلم وتوفر له أبسط شروطه جعله يلتحق بمجالس العلم ويندفع للإقبال على الحياة، وهذا ما يبدو جليا في قول (ابن باديس): «الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم العلم، وحب التعلم، واحترام المتعلمين، فلما دبت فيه الحياة وهب للنهوض اندفع للتعلم اندفاعا أدهش قوما وحير آخرين»[2].

2 . الخطاب التعليمي الموجه للمتعلم:

لا يحقق الخطاب التّعليميّ جوانب فعالة مثمرة ولا يبلغ أعلى درجات النجاح إلاّ باكتساب المتعلم للقواعد الّتي تسمح له باستعمال اللّغة وممارستها في الحياة اليومية، والقدرة على استثمارها لاكتشاف تاريخ علوم، والاستفادة من الخبرات والمعارف لتنظيم الحياة وإدراك العالم من حوله.

وقد خاطب (عبد الحميد بن باديس) المتعلم في عدة مناسبات ووجه له نصائح وإرشادات توجهه في رحلة التعلم، وتنير جوانب مظلمة في حياته، حيث حثه على ضرورة المحافظة على العقل، وحذره من الزهد في تعلم أي علم من العلوم قائلا: «حافظ على عقلك فهو النور الالهي الّذي منحته لتهتدي به إلى طريق السعادة في حياتك، واحذر كل (متعيلم) يزهدك في علم من العلوم، فإنّ العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة»[3] فبالعقل يهتدي الإنسان إلى اختيار الأنسب لحياته، وتمييز الأمور الجيدة من الرديئة، لذلك

[1] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 270.
[2] _المرجع نفسه، ص255.
[3] _المرجع نفسه، ص 177.

لابد من المحافظة على هذه النعمة، وتفعيل دورها في تحقيق السعادة في الحياة، كما حذر (ابن باديس) المتعلم من الأخذ بنصائح بعض المتعلمين والمعلمين باختيار بعض العلوم دون غيرها بمبرر أو دونه، فلا ينبغي التقليل من قيمة وشأن أي علم مهما بلغ حجمه ودوره، ومهما اقترب من مجال اختصاصنا أو ابتعد عنه، فالعلوم تكمل بعضها البعض، وهي نتاج العقول لخدمة الإنسانية.

وثمة آفة أصابت التعليم في الجزائر هي أن العلوم كان منها ما يؤخذ باللسان العربي، وهي العلوم الشرعية والآلية، ومنها ما يؤخذ باللسان الأجنبي، وهي علوم الأكوان والعمران، وقد كان الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام، كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه وظلال، فهؤلاء يعتبرون الآخرين أحجارا، وأولئك يعتبرون هؤلاء كفارا[1] .

ويرشد (ابن باديس) المتعلم أن ينوي بطلب العلم مرضاة الله تعالى والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن غيره، وخدمة الدين متجاوزا بذلك الأغراض الزائلة، فلا يرتبط هذا الجهد برُتب أو مغانم قريبة، ويرى من أسباب نجاح طلبة العلم في تحصيلهم وتفقههم، وهذا ما يبرز بوضوح في قوله: «أن لا يقصدوا إلاّ أن يتعلموا فيعلموا، ويتفقهوا فيفقهوا، ولا يرجوا من ذلك إلاّ رضا الله ونفع عباده»[2]، كما حثهم على تمثيل مكارم الأخلاق الإسلامية، ليكونوا خير خلف لخير سلف، وقدوة للمتعلمين مستقبلا في قوله: « (..) يمثلوا الأخلاق الإسلامية الفاضلة بين أقوامهم حتى تظهر عليهم آثار ما كانوا فيه من غربة للتربية والتعليم، فيحببوا الناس في العلم ويكونوا لهم قدوة فيه وفي العمل به»[3]

كما أوصاهم بنشر ما تعلموا برفق ولطف يشوبه التسامح بعيدا عن العنف والعصبية ورحمة العباد وتقوى الله، وتحمل مشقة طلب العلم والصبر لتحصيل العلم وبلوغ الشهادات العليا، واستثمارها في تعليم الناشئة والمساهمة في تقدم الوطن وازدهار الأمم، وهذا ما يبدو جليا في قوله: « (...) نشر ما تعلموا من خير برفق ولطف وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس، وأن لا يقابلوا ذلك إلاّ بالتسامح دون أدنى شيء من المكروه» ويقول أيضا: «اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلمه ونشره، وتحملوا كل بلاء

---

[1] _ مصطفى محمّد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، قطر ، الدوحة، ط1، 1997م.ص 116، 117.

[2] _ المرجع نفسه، ص 114

[3] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 223.

ومشقة من أجله»[1]

ويرى (ابن باديس) ضرورة الاستمرار في طلب العلم، والاجتهاد في تحصيله وأنه مهما بلغ الإنسان من درجات في العلم، يبقى بحاجة إلى طلب المزيد، وفي هذا يقول: «يتعلم الإنسان حتى يصير عالما ويصير معلما ولكنه مهما حاز وتوسع فيه وتكمل به، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه ومعلّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبدًا أن يتعلم وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيه ﷺ أن يطلب من الله عز وجل، وهو الّذي علّمه ما لم يكن يعلم أن يزيده علمًا، فقال: (وقل ربي زدني علماً)»[2]

3 . الخطاب التعليمي المخصص للارتقاء بالتعليم:

يشكل التّواصل بين المعلم والمتعلم عاملا جوهريا يساهم في السير الجيد للعملية التعليمية، وليتمكن كلّ طرف من تقديم واستقبال وتلقي المعلومات والأفكار لابد من تفعيل دور المناهج في خدمة التعليم والرقي به، والعمل على إصلاح التعليم لتطوير العلوم التي تنفع المتعلم وترفع من شأن الدول والأمم.

يرى (عبد الحميد بن باديس) أنّ العلم هو إدراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه، وهو عام ويليه الظن، وهو إدراك أمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلاّ ذاك، وهذه هي الحالة الّتي يطلق عليها لفظ العلم مجازا[3]، وهذا يدل على أنّ إدراك العلم واكتسابه لابد أن يمتاز باليقين والدقة التي لا يشوبها شك أو احتمال، ولا يمكن للمرء أن يدرك الأمور المحيطة به في حياته إلاّ بالتعلم، وهذا ما وضحه (ابن باديس) في قوله: « لا حياة إلاّ بالعلم، وإنّما العلم بالتعلم، فلن يكون عالما إلاّ من كان متعلمًا، كما لا يَصلح معلمًا إلاّ من قد كان متعلمًا، ومُحَمَّد ﷺ الّذي بعثه الله معلمًا، كان أيضا متعلمًا علّمه الله بلسان جبريل، فكان متعلمًا عن جبريل عن رب العالمين، ثم كان معلمًا للناس أجمعين»[4] فلا يكتسب الإنسان العلوم إلاّ بالتعلم، ولن يحقق رتبة العالم والمعلم إلاّ إذا كان متعلما، فالنبي صلى الله عليه وسلم علمه الله عن طريق جبريل، ليصبح معلما للناس أجمعين، وصلاح العلماء ــمن وجهة نظر ابن باديســ مرتبط بصلاح التعليم، فبإصلاحنا للتعليم نتمكن من إصلاح العلماء، وهذا ما وضحه رئيس جمعية العلماء المسلمين في قوله: «ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الّذي يطبع المتعلم بالطابع

---

[1] ــ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] ــ مصطفى مُحَمَّد حميداتو: المرجع السابق، ص 117،118 / طه 114.

[3] ــ المرجع نفسه، ص110، 111.

[4] ــالمرجع نفسه، ص113.

الّذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أرادنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم؛ ونعني بالتعليم التعليم الّذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه»[1]

ويعدّ التعليم من منظور (ابن باديس) وسيلة لاكتساب المعرفة يحظى بها كل أفراد المجتمع دون استثناء، وهذا ما أشار إليه في رد الجمعية على خطاب (ابن غراب) قائلاً: «أمّا التعليم كما يفهمه كل أحد، وكما جاء به الدين، وكما كان عليه السلف المسلمين، فهو نشر العلم لكل أحد، للكبير والصغير والمرأة والرجل، بحلق الدرس ومجالس الوعظ وخطب المنابر وبكل طريق موصل، وهذا ما اشتغلت به الجمعية وتوسلت بالطرق الموصلة إليه»[2] فالتعليم لا يقتصر على فئة أو طبقة معينة من المجتمع، فهو حق تكفله الدولة لكل فرد ينتمي إليها، رجلا كان أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا، كما حثنا الدين الإسلامي على طلب العلم فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة، يتم تلقينه بكل الطرق التي تؤدي إلى تزويد مخزون المتعلم بالمعارف، سواء داخل المساجد أو مجالس الوعظ وخطب المنابر، أو المكاتب القرآنية وقاعات التدريس... وقد تطورت في السنوات الأخيرة الطرق والآليات المعتمدة لتعليم الطلبة، من بينها التعليم الافتراضي أو عن بعد والتعليم الإلكتروني... مما يدل على أنّ (عبد الحميد بن باديس) له رؤية استشرافية وتصور منفتح على تطوير التعليم والارتقاء به وإعطائه مكانة مرموقة، تنطلق من تعاليم الدين الإسلامي دون التقيد بشروط تحدّد فئة أو جنس أو زمان أو مكان.

وتأسيسا على ذلك رد رئيس جمعية العلماء المسلمين على الاعتقاد الّذي يحصر التعليم في حلقات تُعنى بمسائل معينة وتستند إلى كتب محدّدة بقوله: «يفهمون من التعليم هو أن يجلس الشيخ في وسط حلقة ثم يلقي عليهم مسائل من النحو ومسائل من كتاب الصلاة، هذا فقط هو التعليم، فأمّا مكتب ابتدائي يعلم فيه أبناء المسلمين وبناتهم مبادئ دينهم ولغتهم ويحفظون فيه مواطن الفساد ومهاوي الشقاء وبراثن المضللين، ويهيئون للحياة تهيئة صحيحة تكوّن منهم رجالا مسلمين يخدمون أمتهم ووطنهم ودولتهم ويشرفون سمعتها، وأمّا إلقاء الوعظ والإرشاد على طبقات العامة الّتي تفقههم في دينهم وتعرفهم بالفضائل الإنسانية وتحذرهم من الرذائل الحيوانية، وتفتح بصائرهم لإدراك الحياة الدنيا وما يفيد هم في الحياة الأخرى، وتصحيح عقائدهم وتهذيب أخلاقهم وتقويم أعمالهم، حتى يعيشوا بذلك كله سعداء في الدنيا مع أنفسهم »[3] وهذا يدل على أنّ التعليم لا

[1] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 217.

[2] _المرجع نفسه، ص289.

[3] _المرجع نفسه، ص 288.

يقتصر على مجالس تنظم ضمنها حلقات حول قواعد نحوية ترتبط باللغة العربيّة، ومسائل عن الصلاة وبعض التعاليم الإسلامية فحسب، بل يفتح آفاقا أوسع وأشمل أمام طلبة العلم لاقتحام الحياة والتزود بمبادئ الدين الإسلامي واللغة العربيّة، والتشبع بالعقائد ومكارم الأخلاق التي تسمح لهم بمواجهة الفساد والبعد عن مهاوي الشقاء، ليمثلوا أمتهم ودولتهم وأوطانهم خير تمثيل.

ويمكن تلخيص أهداف التربية والتعليم الباديسية في النقاط الآتية:

- ❖ إحياء اللغة العربية والثقافة الإسلامية في البلاد.
- ❖ تقوية الشعور بالشخصية الإسلامية الجزائرية والدفاع عنها.
- ❖ تطهير الدين من الخرافات والبدع.
- ❖ المحافظة على التراث العربي الإسلامي في الجزائر.
- ❖ العمل على تحرير الجزائر من سيطرة الاحتلال الأجنبي.[1]

وقد لاحظ (ابن باديس) أنّ المناهج والبرامج المتبعة في زمانه ليست في حالة اعتدال، سواء في صورتها أو مادتها، لإهمالها كثيرًا من المبادئ الخالدة الّتي جاء بها الإسلام[2]، لذلك حث على الاستفادة من التعليم النبوي والاقتداء به كخطوة أولية ورئيسة لإصلاح التعليم في الجزائر، وهذا ما وضحه في قوله: «ولن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم الرسول ﷺ وفي صورة تعليمه، فقد صح عنه ﷺ فيما رواه مسلم أنه قال: (إنّما بعثت معلمًا)»[3]، حيث يعدّ الاعتماد على أسس التعليم النبوي التي ترتكز على تلقين تعاليم الإسلام لكافة الناس، وإرشادهم بالموعظة الحسنة في مجالس الذكر والحلقات والمساجد، من بين السبل الأنجع لإصلاح التعليم والارتقاء به.

ومن هذا المنطلق اقترح (ابن باديس) إصلاح التعليم بجامع الزيتونة وفق تقسيم جديد يرى أنه يتناسب مع المستجدات ويلبي حاجيات المتعلمين، والّذي حدّده في قوله: «نرى أن أول عمل في الإصلاح هو تقسيم التعليم في الجامع إلى قسمين: قسم المشاركة وقسم التخصص، فأمّا في قسم المشاركة فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات على طبقاتهم ويحصل الفائزون في الامتحان بعد تمام مدة التعليم الّتي لا تقل عن ثماني سنوات على شهادة عالم

---

[1] _ رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 153.

[2] _ مصطفى مُحَمَّد حميداتو: المرجع السابق، ص 134.

[3] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص217.

مشارك بدلا من لفظة (متطوع)، فإنّه لفظ مات معناه وذهبت قيمته بذهاب الوقت الّذي وضع فيه والمناسبة الّتي اقتضته»[1] وبناءً على ذلك يعدّ (ابن باديس) من العلماء المجددين على مستوى مضامين ومناهج التعليم، وصياغة رتب وشهادات جديدة يتحصل عليها الطالب في سنوات محدّدة، وكيفية توزيع العلوم والمواد على السنوات المخصصة لقسم المشاركة، والتي يكتسبها المتعلم بترتيب معين وضحه كالآتي:

- ✓ فنون اللغة العربيّة وتاريخ الأدب العربي.
- ✓ العقائد الإسلامية، وأن تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.
- ✓ الفقه، بحيث يقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها.
- ✓ تفسير القرآن العظيم، من تفسير الجلالين.
- ✓ الحديث النبوي، بدراسة مختارات من كتب السنة.
- ✓ التربية الأخلاقية، من الآيات والأحاديث وآثار السلف الصالح.
- ✓ الحساب والجغرافيا ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة.[2]

إنّ المتأمل لهذه العلوم يدرك مدى تركيز (ابن باديس) على تعليم الناشئة الدين الإسلامي واللغة العربيّة، كما أولى أهمية بالغة للتربية الأخلاقية النابعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، دون إغفاله لدور وقيمة الحساب والجغرافيا والفلك والهندسة، لتكوين جيل مثقف متمسك بعقيدته ولغته ومطلع على مختلف العلوم التجريبية والعلمية.

ومن زاوية أخرى اقترح رئيس جمعية العلماء المسلمين تقسيم قسم التخصص إلى ثلاثة فروع حدّدها في قوله: «وأمّا قسم التخصص فيفرع إلى ثلاثة فروع: فرع للتخصص في القضاء والافتاء وفرع للتخصص في الخطابة وفرع للتخصص في التعليم، وبعد تمام المدة الّتي لا تقل عن أربع سنوات في فرع القضاء والافتاء، وعن سنتين في فرعي الخطابة والتعليم، ينال الفائزون في الامتحان شهادة التخصص بالعالمية فيما فازوا فيه»[3]، وهذا يدل على أنّه فصل القضاء والافتاء عن الخطابة والتعليم، إلاّ أنّه فصل شكلي فقط فالطالب المتخصص في فرع القضاء والافتاء لا مناص من أن يمتلك ويتقن أسس الخطابة وأساليب التعليم، والطالب في فرع التعليم يحتاج إلى فن الخطابة لتعليم الناشئة مستقبلا، وكذلك الحال بالنسبة للخطيب الّذي يتدرب على كيفية الإلقاء والإقناع لتعليم المتلقي وفقا

---

[1] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 181.

[2] _مصطفى محمّد حميداتو: المرجع السابق، ص 142 ، 143.

[3] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

لتعاليم الإسلام، وبالتالي تتداخل التخصصات وتكمل بعضها البعض، وهذا ما وضحه (ابن باديس) في قوله: «إنّ المتعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأمّا المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلا بد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم وكذلك المعلمون في فرع الخطابة».[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ (عبد الحميد بن باديس) قد حدّد لكل فرع من فروع قسم التخصص العلوم الخاصة به في قوله: «وأمّا **فرع القضاء والفتوى** من قسم التخصص فيتوسع لهم في فقه المذهب ثم في الفقه العام وتكون (بداية المجتهد) من الكتب الّتي يدرسونها، ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام ويدرسون علم التوثيق ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة»[2] وعليه يختص فرع القضاء والفتوى بقضايا الفقه وعلم التوثيق والفرائض والحساب، ويكون اطلاع الطالب على مدارك المذاهب حتى يتمكن من تجسيد الفتوى الصحيحة الّتي تتناسب مع المذاهب على اختلافها، كما يجب أن يكون اطلاع طالب فرع الخطابة واسعًا يشمل آيات المواعظ والآداب والسيرة النبوية، وهذا ما أشار إليه (ابن باديس) قائلاً: « وأمّا **فرع الخطابة** فيتوسم لهم في صناعة الإنشاء والاطلاع على أنواع الخطب ويدرسون آيات المواعظ والآداب وأحاديثهما، ويتوسعون في السيرة النبوية ونشر الدعوة الإسلامية، ويمرنون على القاء الخطب الارتجالية».[3]

أمّا فيما يخص فرع التعليم فقد اختار لهم رئيس جمعية العلماء المسلمين التمرن على التعليم بالفعل ومدارسة الكتب، وهذا ما يبرز بوضوح في قوله: «وأمّا **فرع التعليم** فيتوسعون في العلوم الّتي يريدون التصدي لتعلمها، مع تمرينهم على التعليم بالفعل ومدارستهم للكتب الموضوعة لفن التعليم»[4] وهنا نلاحظ مدى اهتمام (ابن باديس) بالجانب الإجرائي والتطبيقي دون إغفاله للمحتوى النظري، حيث أقر بأنّ الإعطاء الأولوية للمادة العلمية ذات الطابع النظري عند وضع المقررات والمناهج لتعليم الطلبة في هذه الفروع والتخصصات على حساب البعد العملي والتطبيقي يعدّ مجرد تضييع للجهود والوقت دون الحصول على نتائج ملموسة نفعية في الواقع التعليمي، وهذا ما وضحه في قوله: «وأمّا قراءتها بلا تطبيق ــ كما الجاري به العمل اليوم ــ فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل، وعلى

---

[1] ــ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 181 ، 182.

[2] ــ المرجع نفسه، ص 183.

[3] ــ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ــ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تاريخ الأدب العربيّ وعلى تعلم الانشاء وعلى تعلم حسن الأداء في القراءة والقاء الكلام وعلى العقائد، ويجب أن تؤخذ هي وأدلتها من آيات القرآن فإنّها وافية بذلك كله، وأمّا اهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة فإنّه من استبدال الّذي هو أدنى بالذي هو خير»[1] كما ارتكز خطابه على الأخذ بالأدلة الواردة في القرآن الكريم والحديث النبوي، وعلى عدم استبدالها بالأدلة الجافة، الّتي تعدّ أدنى شأنا فلا قيمة لها إذا ما قارناها بالأدلة التي جاء بها رسول الله صلى الله علية وسلم ونادى بها القرآن الكريم.

وفي نفس الصدد أشار (عبد الحميد بن باديس) إلى رأيه حول العلوم الّتي يشتمل عليها منهاج التعليم في مجال الفنون بقوله: «أمّا مسألة الفنون وكيفية تعليمها فنرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك على اللغة والنحو والصرف والبيان، بتطبيق قواعد هذه الفنون على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة»[2] وهذا يعني أن يكتسب المتعلم القواعد الخاصة بالنحو والصرف والبيان، ثم يطبقها على الشعر والنثر... ليتمكن من تحصيل ملكة تسمح له بالانتقال من مرحلة التعلم إلى التعليم، وبالتالي أعطى أولوية للجانب التطبيقي والممارسة، دون إهماله للقواعد والمبادئ النظرية، أمّا العلوم الّتي أقرها في بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر فهي : التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض، العقائد، الأدب، المواعظ، التجويد، الأصول، المنطق، النحو، الصرف، البلاغة، الأدب، محفوظات، مطالعات، دراسة، الإنشاء، الحساب، الجغرافية، التاريخ، والكتب المدروسة: الموطأ، أقرب المسالك، الرسالة، ابن عاشر، الزندبوي، المفتاح، التنقيح، السل، المكودي، القطر، الأجرومية، الزنجاني، اللامية، السعد، الجوهر المكنون، من ديوان الحماسة، من ديوان المتنبي، آمالي القالي، من مقدمة ابن خلدون.[3]

ومما لا شك فيه أنّ الإسلام نادى بضرورة طلب العلم والتزود بالحكمة والتفقه في أمور الدين والدنيا، وحث على السعي لاكتساب المعرفة في كل زمان ومكان، وبما أنّ (عبد الحميد بن باديس) أعطى قيمة لطلب العلم وأشاد بمكانة الدين الإسلامي في حياة المسلم وفي الرقي بالتعليم، فقد أقر بضرورة طلب العلم من أجل العلم بكل لسان في قوله: «كان مما ربي عليه الإسلام هذا الشعب الجزائري الكريم أن يطلب العلم للعلم، وأن يسعى إليه في كل أرض وأن يتعلمه بكل لسان، وأن يتناوله _شاكرا_ من كل أحد»[4]، حيث يرتحل الجزائري للتزود بالعلوم على اختلاف، ويسعى إلى طلب العلم في كل مكان وبكل لسان، فلا يهتم بلغته الأم فقط وإنّما يتعلم

---

[1] _ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 182.

[2] _ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] _المرجع نفسه، ص 229.

[4] _المرجع نفسه، ص 255 ، 256.

لغات العلوم والثقافات الأخرى، لذلك لم يرفض بعض الجزائريين أثناء فترة الاحتلال تعلم اللغة الفرنسية، بدليل قول (ابن باديس): «لهذا ترى أبناء الجزائر يجمعون ــ إذا وجدوا السبيل ــ بين لغتهم العربية واللغة الفرنسية، وتجدهم كما يطالبون الحكومة بحرية تعليم وتعلم دينهم ولغة دينهم، يطالبونها بإيجاد المدارس وتوسيعها لتعلم الفرنسية وما إليها»[1]

ولا يفوتنا أن ننوه إلى رفض بعض أبناء الجزائر لتعلم اللغة الفرنسية بحجة التمسك بلغة الوطن والدين، ومحاربة لغة العدو والمستعمر، فقد عانى قطاع التعليم في زمن (ابن باديس) من عوائق كثيرة، نذكر منها:

أولاً: نفور أغلب الشعب من تدريس أبنائهم اللغة الفرنسية، باعتبار أنّها لغة العدو الكافر الّذي اغتصب وطنه، الشيء الّذي أوجد فراغًا كبيراً لدى الأهالي في كثير من التخصصات العلمية، الّتي لا تدرس إلاّ باللغة الفرنسية.

ثانيًا: الطرق الصوفية المنحرفة التي سعت جاهدة لإيقاف المد الإصلاحي.[2]

ولم يرفض (ابن باديس) تعلم اللّغة الفرنسيّةكما لم يهمالها على حساب اللغة العربيّة، بل أرى أنّ تعلمها يؤدي إلى اكتساب الآداب والعلوم الغربية، وهذا ما أشار إليه في قوله: «وإذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعليم العربي فذلك لأنّ العربية هي لغة الدين الّذي هو أساس حياتنا ومنبع سعادتنا؛ ولأنّها هي الّتي نحسن تعليمها» ويضيف قائلا: «ولو أنا حرمنا من حرية تعلم اللغة الفرنسوية الّتي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا، لوقفنا إزاء ذلك الحرمان لو كان كوقوفنا إزاء هذا الحرمان، إنّ شعبين متباينين ربطت أوضاع الحياة الجارية بينهما، لا أحسن لهما من أن يتفاهما ويتكارما ويتناصفا ويتآلفا، ومفتاح ذلك أن يتعلم كل منهما لغة صاحبه»[3] أي أنه يدعو إلى سياسة التعايش السلمي من خلال قبول لغة الآخر وتعلمها، فيلتحق الفرنسي بمقاعد الدراسة لتعلم اللغة العربيّة، ويسعى العربيّ لتعلم اللغة الفرنسيّة واللغات الأجنبية، وهذا ما أصبح متداولاً في زمننا بل أضحى النطق باللغة الفرنسيّة أو الإنجليزية موضة العصر، ومن بين ضروريات الحياة ومتطلبات العصر، كما زاد إقبال الأجانب أو غير الناطقين باللغة العربيّة على تعلمها.

---

[1] ــ عمار الطالبي: المرجع السابق ، ص 256.

[2] ــ مصطفى مُحَمَّد حميداتو: المرجع السابق، ص116.

[3] ــ عمار الطالبي: المرجع السابق ، ص 257.

ولا مناص من القول أنّ رئيس جمعية العلماء المسلمين يؤكد لنا في خطاباته التعليمية والتربوية على ضرورة الأخذ بتعاليم الدين الإسلامي وتطبيقها، حيث حثنا رسول الله ﷺ على تعلم لغات الغير لنأمن شرهم، وقد وضح (ابن باديس) القانون الأساسي للجمعية التربية والتعليم الإسلامي في قوله: «بني القانون الأساسي للجمعية من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية اسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي والفرنسي»[1]

وقد حث (ابن باديس) أدباء الجزائر وشعرائها أن يدرسوا آدابهم العربية، وأن يطالعوا الآداب الغربية في اللغة الفرنسية، وأن يمازجوا قومهم ليأملوا وينعموا ــ إن كان نعيم ــ معهم، لتكون لهم منزلة أدبية عالمية، وآثار بارزة في الحياة الجزائرية[2]

خاتمة:

بعد تتبعنا لسمات الخطاب التعليمي الّذي وجهه (عبد الحميد بن باديس) للمعلم والمتعلم، و إصلاح التعليم والارتقاء به، خلص البحث إلى تسجيل وتأكيد جملة من الملاحظات والنتائج نوجزها كالآتي:

ــ يرى أنّ التعليم نافذة مفتوحة على الحياة، تزود طالب العلم بالأسس والضوابط الي تجعل منه خير خلف لخير سلف.

ــحاول عبد الحميد بن باديس تقديم حلول عملية وإجرائية لإصلاح التعليم العربي وتوحيد مناهجه.

ــ أعاد (ابن باديس) للمرأة المسلمة مكانتها في المجتمع من خلال حثه على التقيد بالتعليم النبوي، وفلسفته التربوية والتعليمية المنفتحة على تعلم لغة الغير دون المساس بالدين والمعتقدات واللغة العربية.

ــأضحى من الضروري إصلاح التعليم وتطوير المناهج التعليمية لبلوغ أهدف أسمى وهو إصلاح الإنسان وتثبيت القيم والمحافظة على الأخلاق.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

[1] ــ عمار الطالبي: المرجع السابق، ص269.

[2] ــ المرجع نفسه ، ص 536.

ـ رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

ـ عمار الطالبي: آثار ابن باديس مقالات اجتماعية تربوية أخلاقية دينية سياسية، الشركة الجزائرية للحاج عبد القادر بوداود، الجزائر، ج1، مجلد2، ط3، 1997م.

ـ مُحَمَّد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007م.

ـ مصطفى مُحَمَّد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، قطر ، الدوحة، ط1، 1997م.